

أودية الصحراء

يعد الواد أكثر أشكال الجريان السطحي في الصحاري والنطاقات الجافة والشبه جافة، وتصريفه يقتصر على الفصول المطرية، وعادة ما يكون هذا الجريان داخليا أي من الأودية الحبيسة التي تتعرقل في مسارها بفعل حواجز الكثبان الرملية أو نتيجة التسرب الكبير لمياهها عن طريق نفاذية الرمل السائد في هذه البيئة أو بفعل شدة التبخر الناتج عن ارتفاع درجة الحرارة، وهناك من يطلق عليها كذلك الأودية الضالة، وهناك أودية حبيسة في مصبها، أي في وصولها لمصب عند البحر تعوقها كثبان رملية وتحول دون وصولها للساحل، وتشكل بالتالي بحيرة أو ضاية نتيجة هذه العرقلة الطبيعية، مثل واد شبكية وواد أم فاطمة بنواحي طنطان، إلى جانب هذه الأودية نجد كذلك أودية ذات صرف خارجي، تكون في غالب الأحيان ممتدة الأطراف وذات حمولة كبيرة تصل إلى البحر بعد فقدان حمولتها في الطريق، وفي هذه المرحلة الأخيرة من جريانها تتخلى شيئا فشيئا عن ما تبقى من حمولتها إما على شكل كومات رسوبية متناثرة إما في قعور سرير الواد أو على شكل دلتات صغيرة عند مصب الواد بمشارف البحر.

وجل هذه الأودية تنطلق أو تأخذ منبعها من مرتفعات إما قريبة أو بعيدة، فمثلا واد درعة من أهم الأودية بالصحراء ويأتي من جبال الأطلس الشرقي بنواحي ورزازات ثم يأتي في المرتبة الثانية أهمية واد الساقية الحمراء الذي ينبع من حمادة تندوف، أما الأودية الأخرى فهي ثانوية وتشكل أغلبها روافد لأكبر الأودية بالصحراء، وخاصة واد الساقية الحمراء الذي نخص به هذا العمود. كما يجب الإشارة إلى أن هناك ارتباط وثيق ما بين الواد والسيول فالواد هو ممر مائي قديم ولكنه جف بفعل انعدام التساقطات، بينما السيول يتكون نتيجة هطول الأمطار حيث تتجمع المياه وتزحف نحو الأودية فتزيد من حمولتها وجريانها. وهذه السيول تعمل كذلك على تغذية الفرشة المائية الباطنية بانسيابها وسيولها عبر السطح ثم نفاذها في اتجاه الباطن.

والحديث عن واد الساقية الحمراء هو في آن واحد الحديث عن كل المجال الصحراوي الذي حمل منذ العصور القديمة إسم هذا الواد، بل تعدت شهرة وصيت هذه المنطقة جل الأقطار العربية والإفريقية على السواء.

فهذا الإسم له مكانة ووقع في ذاكرة المجتمع الصحراوي، لا من حيث أصول القبائل جمعاء التي تعتبر الساقية الحمراء موطنها الأصلي، ولا من ناحية أهميتها الاقتصادية كمنطقة

توفر الكلاً والماء والزراعة للبدو الرحل وكونها كذلك منطقة جهادية تحمي وتستقطب المجاهدين المرابطين ضد الغزاة الأجانب.

فالحدود الجغرافية لهذه المنطقة حسب المؤرخين والجغرافيين المغاربة القدماء مجال يمتد من واد درعة شمالاً إلى مشارف بلاد شنقيط جنوباً، مروراً بمنطقة تيرس أي واد الذهب حالياً. ومن هؤلاء نذكر أبو عبيد الله البكري الذي ذكرها بـ"تارجا أو تاركا" أي الساقية بالعربية فقال: "من وادي درعة خمس مراحل إلى وادي تارجا، وهو أول الصحراء ثم نمشي في الصحراء (فتجد الماء على اليمين والثلاثة حتى تصل إلى رأس المجابة إلى البئر المسماة تزامت بئر معينة غير عذبة، وهي إلى الملوحة أقرب قد أنبسطت).. وفي الشرق منها تسمى بئر الجمالين، وعلى مقربة منها أيضاً بئر تسمى ناللي كلها عذبة... ومنها إلى جبل يسمى بالبربرية (أدراران وزال تفسيره)..."

أما الجغرافي الشريف الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" فأشار لهذا المجال أو الواد بـ"تازكغت"، فقال: "...في هذا الجزء من بلاد الصحراء نول لمطة وتازكغت...". كما أضاف: "فأما بلاد نول الأقصى وتازكغت فهي بلاد لمتونة الصحراء ولمتونة قبيل من صنهاجة وصنهاجة ولمطة إخوان لأب واحد وأم واحدة وأبوهم لمط بن زعراع".

وهناك من حدد هذا المجال من واد نون شمالاً إلى مشارف بلاد شنقيط جنوباً، وهذا ما جاء به أحمد الأمين الشنقيطي في كتابه "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط"، حيث قال: "الكلام على الساقية الحمراء: هي أرض مشهورة، وهي آخر شنقيط من جهة واد نون، تبعد عن شنقيط عشرين يوماً بالسير الحثيث، وتقدمت أبيات ابن الشيخ سيدي، التي صرح فيها، إن مسافتها شهر بسير الإبل، من الصباح إلى المساء، وبذلك يتضح ما قلت، لأن أرضه تبعد عن شنقيط بنحو عشرة أيام،(..)". بينما في فترة المستكشفين الأجانب والاستعماريين الفرنسي والإسباني على السواء، حصرت حدود الساقية الحمراء في مجرى الواد والأراضي المحاذية له، أي المنطقة الممتدة من منبع واد الساقية الحمراء شرقاً مروراً بمدينة السمارة إلى مصبه بغم الواد بالمحيط الأطلنطي غرب مدينة العيون، ومن الشمال تمتد إلى الكعدة، وجنوباً إلى حدود لمسيد شمال بوجدور، وهذه المنطقة التاريخية لم يحتلها المعمر الإسباني احتلالاً كاملاً إلا في حدود سنة 1934.

وقد ورد كذلك عند أحمد الأمين الشنقيطي بأن هذه الأرض هي في الأصل في ملكية قبيلة الركييات، بقوله: "...وهي في الأصل، للركييات قبيلة أصلهم من الزوايا، إلا أنهم يحملون السلاح في أكثر أوقاتهم..".

وأضاف " وكانت الساقية الحمراء ،خالية لا أنيس بها لشدة الخوف، ولقحولتها دائما، حتى عمرها الشيخ ماء العينين، وبنى فيها الدور، وغرس النخل فسهلت المواصلات بين شنقيط وغيرها من المواضع المغربية، أعني التابعة للمخزن."

إلا أن منطقة الساقية الحمراء لم تكن "خلاء لا أنيس فيها"، بل كانت عمارة وخلوة لأهم أولياء الصحراء قبل مجئ الشيخ ماء العينين بقرون. هذه الأرض المقدسة بأولياؤها تضم آباء وأجداد بعض القبائل ك : الشيخ سيدي احمد الركيبي، دفين واد الحبشي شمال شرق الساقية الحمراء، الذي يذكره الحسن البعقلي قائلا: "احمد الركيبي شبل عبد الواحد ولد عبد الكريم بن محمد(.). فأصل الركيبي درعة، تملك فيها نخلا كثيرا ومواشي وأصولا كثيرة، فانتقل (...إلى أرض لخنيكات، واشتراها بساحل البحر بالشبيكة بستين قنطارا من الذهب من أربابها بني حفيان..".

ومن بين الأولياء الذين سكنوها شهداء أولاد أبي السباع السبعة المدفونين بالطويحل، جماعة سيد احمد العروسي، إقليم السمارة، وهم : محمد البكار بن الحاج، ومحمد المختار، وعيسى، وإبراهيم بوعنكة، وعبد المولى، والعباس، ومحمد المعروف باكلش، وهم من القرن العاشر الهجري، وقد ذهب دي لاشابيل De la Chappelle إلى أن طرد البرتغاليين عن السواحل الصحراوية راجع إلى السباعيين، كما أن هؤلاء السباعيين السبعة سقطوا في معركة مع الضابط البرتغالي المسمى ب"الشمصعي" وفي الكتابات الغربية يسمى Somida.

إلى جانبهم نجد الشيخ سيدي احمد العروسي الجد الجامع لقبيلة العروسيين، دفين الطويحل (جماعة سيدي احمد العروسي) على الضفة اليسرى للساقية الحمراء. ومن صلحاء الساقية الحمراء نذكر سيدي الحاج احمر اللحية جد فخذة أولاد الشيخ من الركيبات، والجد الجامع لأولاد الدليم بويا علي الدليمي على واد وين تركت، والشيخ مره ربه بواد تافودارت أحد روافد واد الساقية الحمراء وهو من أولاد الشيخ ماء العينين، ثم في أسفل الواد قرب مدينة العيون وبالضبط بقم الواد نجد مزار الولية الصالحة العيافة، ومقابر رجالات معينة السباعيين بتافودارت، وجل أولياء الساقية الحمراء هم شرفاء أدارسة ينحدرون من إدريس الأول، مؤسس دولة الأدارسة.

ونظرا لأهمية هذه المنطقة الإستراتيجية والاقتصادية والروحية، بحكم أنها تربط بين شمال المغرب وجنوب الصحراء عبر القوافل التجارية، وكونها تبعد عن البحر بأكثر من 240 كلم في اتجاه العيون، هذا البحر الذي جلب للمنطقة أطماع أجنبية، وباعتبارها كذلك أرض خلوة لأولياء الله وصلحائه، كل هذه العوامل تفاعلت فيما بينها ليتخذ منها الشيخ ماء العينين قاعدة له في مواجهة التوغل الاستعماري. ففي سنة 1902 بنى الشيخ ماء العينين زاويته بالسمارة على الضفة اليمنى لواد سلوان أحد روافد واد الساقية الحمراء، وكانت مركزا متقدما لمواجهة الاستعمار الأجنبي، الذي لم يتحكم في هذه المنطقة إلا في سنة 1934.

أما عن مورفولوجية واد الساقية الحمراء فيجب أن نشرح بادء ذي بدء اسم هذا الواد التاريخي. فلقد سمي بالساقية لأنه يوصل الماء في فترات فيضانه وجريانه إلى البدو الرحل بدون تقطع أو انحباس فهو كما أشرنا في المقدمة من الأودية ذات الصرف الخارجي، أي التي يصل جريانها إلى البحر عكس الأودية الحبيسة ذات الصرف الداخلي. ولهذا نعتوه بالساقية لأنه يسوق الماء إلى الأراضي العجفاء أو العطشانة كما يسقي الأرض ويرويها ليتمكن البدو الرحل من زرعها والانتفاع من الكلاً الذي توفره أرضه بعد مرور الفيضان.

أما الحمراء، فنعت يوحى بثلاث احتمالات :

- الاحتمال الأول من حيث التربة، بأن أحد أهم روافد واد الساقية الحمراء يدعى إريقي أي باللغة الأمازيغية الوحل أو الطين المبلل، وهذا الطين أو الطمي يحمله هذا الرافد ليصبه في واد الساقية الحمراء الذي يرسبه بدوره في قعوره، فيعطينا ذلك الاحمرار الطيني- الرملي، الذي يستغله البدو في زراعة الشعير نظراً لخصوبة أتربته. وهناك من يرجع أصول هذه التربة الرملية المحمرة إلى زمن الفترات الرباعية الرطبة.

- الاحتمال من حيث النبات، فذاك الطمي المرسب في قعور الواد تحتله نباتات شوكية من نوع العناب أو ما يطلق عليه محلياً "النبكة" وهذه النبتة تتسم في بداية نموها باحمرار براعمها قبل أن تتحول بعد نضجها إلى اللون البني.

- الاحتمال الثالث ناتج عن التعرية الهيدروكيمياوية Erosion Hydrochimique فواد الساقية الحمراء ينبع من حمادة تندوف، وهذه الأخيرة من أغني الهضاب الصحراوية بمعدن الحديد، وعندما تتجمع المياه في قلب هذه الحمادة يتم تأكسد الحديد الموجود في صخورها فتؤدى إلى احمرار المياه الجارية في الواد، ولشدة هذا الاحمرار أطلق عليه السكان الأصليون واد الساقية الحمراء وهذا الاحتمال الثالث هو الأرجح والأقرب إلى الصواب.

وواد الساقية الحمراء هو أكبر الأودية في الصحراء بعد واد درعة، يمتد على طول 450 كلم من حمادة تندوف شرقاً إلى مصبه عند فم الواد بالمحيط الأطلسي غرباً على بعد 25 كلم من مدينة العيون، وأول من رسم مجراه هو العقيد الفرنسي بيجو ثم أخذه عنه كلا من دى لاشابيل ودولاي في الخريطين التي وضعوها للمنطقة سنة 1930، فقد جاء ما يلي عن بيجو: "... ففي الجنوب الغربي لتندوف يبدأ حوض الساقية الحمراء، منطقة مكتظة بالسكان،.... لكن هذا الحوض يقع في أراضي واد الذهب التابعة للإسبان." المنبع إذا هو من حمادة تندوف كما أكدها المستكشف الفرنسي بيجو، بينما حالياً هناك من يرجع منبعه

إلى جبال كلثة زمور وهذا من الخطأ لأنهم لا يفرقون بين روافده واد الخط الذي يأتي من هذه الجبال وبين مسار واد الساقية الحمراء الذي يستمر سيره في الحمادة شرقا.

- طبوغرافية واد الساقية الحمراء : تنطلق من الأعلى إلى الأسفل، أي من حمادة تندوف منبع الواد حيث حفر فيها أخاديد عميقة جعلت الواد ينحدر بميلان شديد إلى مستوى ما بين 200 و150م، وعند مخرجه من الحمادة على بعد 100 كلم من المنبع، يتسع قطره عرضا، وتظهر في قعره كومات الإرساب متناثرة في سرير الواد تتخللها بعض البقع البيضاء على شكل سبخات صغيرة الحجم. ثم الحوصلة وحاسي الفوار.

ثم يسير واد الساقية الحمراء على مسافة 70 كلم في منطقة تكسوها الرمال والأنقاض الحمراء، ثم يضيق من جديد على 25 كلم من مدينة السمارة حيث يشكل خنقا بين جبلين ثليين قليلا الارتفاع هما لرموز 400م وجبل البطينة الثلثة 460 م وبعد هذا يدخل الواد في خوانق يلتوي حولها حتى تصبح طبوغرافيته محدبة، وقبل وصوله إلى مستواه السفلي أو الأدنى يلتقي بسبخة اكطيان التي تتغذى هي الأخرى من مياهه في فترات الفيضانات. وفي هذا المستوى الأدنى حيث السهول المنخفضة يفقد واد الساقية الحمراء طاقته فيشكل مستنقعات كبيرة عند مشارف مدينة العيون، ثم يستمر سيره وسط صخور صلبة وكثبان رملية ليصل إلى البحر حيث مصبه الذي يدعى فم الواد.

- جيولوجية واد الساقية الحمراء : كما أشرنا فالواد ينطلق من حمادة تندوف، حيث منبعه، وتتألف هذه الأخيرة من الصخور الكريتاسية وتكونات البليوسين الأوسط البحرية، ثم يعبر منخفضا إفراغيا، مشكلا في صخور القاعدة الأولية، الديفونية، على شكل بهرة شاسعة، يرسم فيها الواد حوضه الأوسط. وفي اتجاه الغرب، تختفي القاعدة الأولية تحت هضاب مكونة من رواسب متوجة بدكات حثية بحرية وكثيبيية بليورباعية، وينتهي غربا عند مصبه بقم الواد بالساحل الأطلسي، حيث يتجسد هناك في الرصيف البري، ويشرف مباشرة على البحر بواسطة جرف حي، يتشكل في رواسب لوماشيلية رصيفية تعلو مستوى البحر الحالي ب2م، ممثلة رواسب غمرية هولوسينية.

- روافد واد الساقية الحمراء : واد الديرت، وين سلوان، الحبشي، وين تركت، الخشبي، تغزرت، اجديرية، بو عنكة، مزوار، سكيكيم، اكسات، خنك، اسكوم، العصلي، اتقي، الخط، تازوا، ايتغي، أوليتيس، الجفال، الزويزل، العامر، لبيض، لكراد، ميران، اميزرات، اوركانت، الجمال، التواغد، بن داكة، بنزكا، الفرنان، ادميري، أوزيريفت، اباكي، هذه الروافذ تحوم على واد الساقية الحمراء كشریان تمده بالمياه وتزيد من حمولته في وقت الفيضانات، وتكون جزء منه من حيث بنيته الجيولوجية والهيدروغرافية. وأهم هذه الروافد حجما بعد واد الساقية الحمراء، واد الخط الذي ينبع من جبال كلثة زمور، ويصل

طوله إلى حوالي 240 كلم، ويلتقي مع واد الساقية الحمراء على بعد 40 كلم من مدينة العيون.

وهناك أودية خارج الشبكة الهيدروغرافية للساقية الحمراء، كالواد الوعر وواد اودري وواد شبكية وواد أم فاطمة شمالاً، وجنوباً نجد واد لكرام في إقليم بوجدور و بالضبط عند رأس أوفيست، وتوجد عيون متناثرة خاصة بواد اتقي كعوينات لكروف وعين لمليحس و عيون لكصعيات، بالإضافة إلى شلالات واد بن حمادو.

- روافد واد الذهب : قبل الحديث عن روافد هذه المنطقة، يجب أن نشير أن واد الذهب هو اسم أطلقه الإسبان على المنطقة Rio De Oro نظراً لمرور جل القوافل التجارية المحملة بالتبر أي الذهب بهذا المجال الذي كان يحمل اسم بلاد تيرس، ولكن على المستوى الواقع الطبوغرافي للمنطقة فلا يوجد أي واد يحمل هذا الاسم.

وأهم أودية هذه المنطقة هي : واد أتوي، أشايف، أنزان، الحولي، الجنة، أماسين، تشلا، الكراع، انيدال، توفليت، الفج، الكرايتفا، الفش، لوتاد، توفليت، لبير. ويبقى واد أتوي أهمها بواد الذهب من حيث طوله وأهميته بالمنطقة فهو الذي يغذي سبخة دمس التي يخترقها ليطم مسيرته في اتجاه الشمال حيث ينتهي حبيس الكثبان الرملية.

ويتبين أن واد الساقية الحمراء وروافده أكثر أهمية من حيث العدد والأهمية داخل المنطقة فهي الشريان الحيوي الذي يغذي الفرشة المائية الباطنية. كما أن في فترات فيضان هذه الأودية تغمر مياهها جل الأراضي، وتحمل معها كذلك الطمي الذي ترسبه في قعور لكرابر، التي تعد أخصب البقع الزراعية البورية بالصحراء.

الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994.

أبي عبيد الله البكري، كتاب المسالك والممالك، ج2، ص857، حققه أدريان فان ليفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1992.

محمد دحمان، الساقية الحمراء إبان تأسيس زاوية السمارة : مقارنة سوسيو-تاريخية، ندوة السمارة، الحاضرة الروحية والجهادية للصحراء المغربية، نظمت بمدينة السمارة يومي 1 و2 فبراير 1999، منشورة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، الطبعة الثانية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2002.

الترحال والاستقرار من خلال دراسة سوسيو- تاريخية لقبيلة أولاد أبي السباع : حالة المغرب وموريتانيا، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس – أكادير، الرباط، 2004.

De la Chapelle , Frédéric, Esquisse d'une histoire du Sahara Occidental, Actes du 7eme congrès de L'Ihem , Hesperis,T.H, Rabat, Librairie E. Larose Paris, 1930.

De La Chapelle, F,& Delaye, Th, J, Croquis du Sahara occidental, Actes du 7eme congrès de L'Ihem , Hesperis T,XI (fasciculesI-II), Rabat, Librairie E, Larose, Paris ,1930.

Pigeot (Lieutenant), Carte de reconnaissance de L'Iguidi etdes régions à l'ouest de Tabelbala et au Sud de Oued Dra, in VIIème congrés de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines- Etudes notes, et documents sur le Sahara Occidental- Rabat labrairie E.Larose,Paris 1930.

Cheddad My Driss autres, Elements introductifs – Débat national, sur l'aménagement du territoire-Régions Oued Eddahab Lagouira, Direction de l'Aménagement du territoire, de Environnement de l'Urbanisme et de l'Habitat, Rabat, Décembre, 1999 .

Cheddad My driss et autres, Eléments introductifs-Débat, national sur laménagement du territoire- Régions Laâyoune Boujdour-sakia El Hamra, Ministère de l'aménagement du territoire, Ministère de l'aménagement de territoire, de l'Environnement de l'Urbanisme et de l'Habitat, Rabat décembre 1999.

Cheddad My Driss et autres, Eléments introductifs- débat national sur l'aménagement du territoire- Régions Guelmim-Es Smara, Direction de l'Aménagement du territoire de l'Environnement de l'Urbanisme et de l'Habitat, Rabat, décembre 1999.

Cheddad My Driss, Sahara : écosystème fragile, ressources naturelles limitées et engagement de l'état pour un aménagement régional exceptionnel et une mise à niveau socio-économique et spatiale, Revue Horizons Universiaries n°3 vol 2, Université Mohammed V - Souissi –Rabat, Novembre 2006 .

Dresch, J, G éographie des régions arides, PUF, Paris, 1982.

Gautier, E ,F, Sahara Marocain (au) Revue de Paris, IV 1910. Gharbaoui Ahmed,Géographie du Sahara marocain, casablanca, 1985.

- مولاي ادريس شداد